أفلام تعيد تعريف الزمن: من الحنين إلى المعكوس إلى الخلود

كتبه يونس أوعلي | 12 ديسمبر ,2025

إذا كانت السينما بطبيعتها فنًا يعتمد على الزمن بوصفه أداة للسرد، فإن أفلام الزمن غير الطبيعي تضع هذه الأداة في قلب الأسئلة الوجودية، لتصوغ نظرة فلسفية حول معنى اللحظة التي يعيشها الإنسان، وكيف يفهم ذاته حين تتسع أو تضيق حدود الزمن من حوله.

ولطالما امتلكت الأفلام التي تتلاعب بهذا العنصر قدرةً خاصة على أسر المشاهدين، إذ تمنحهم منظورًا مختلفًا وتقربهم من الأسئلة المتصلة بالحب والموت والذاكرة والهوية. فحين يختلف الزمن عن مجراه الطبيعي يصبح شبيهًا بعدسة مكبّرة تُظهر دواخل الإنسان وصراعاته بشكل أوضح، وتكشف هشاشته ورغبته العميقة في الإمساك بما ينفلت دائمًا من بين أصابعه.

في هذا الإطار تتقاطع أفلام مثل About Time وMidnight in Paris وSomewhere in Time وThe Curious Case of Benjamin Button وThe Age of Adaline في طرحها لفكرة الزمن غير المعتاد، لكنها تفترق في كيفية توظيف هذا الزمن كعامل درامي يثري الشخصيات ويعيد تشكيل علاقاتها ومعاني وجودها، وذلك من خلال تناول قصصِ شخصياتٍ تعيش ضمن إطار زمني غير مألوف، سواء عبر تجاوز العمر الطبيعي، أو عيش الحياة بشكل معكوس، أو امتلاك القدرة على الرجوع بالزمن. هذه الفكرة، رغم بساطتها الظاهرية، تفتح أبوابًا واسعة لمناقشة أسئلة فلسفية وعاطفية تتعلق بالحب والهوية ومعنى مرور الوقت.

فيلم "About Time": الزمن كفرصة لإعادة اكتشاف الحاضر

يقدّم فيلم"About Time" (عن الوقت)، الذي أُنتج عام 2013، تجربة إنسانية دافئة تستخدم السفر عبر الزمن بوصفه وسيلة حميمة لفهم الحياة على نحو أفضل.

وتدور القصة حول شاب يكتشف أنه يمتلك قدرة وراثية تسمح له بالعودة إلى لحظات سابقة من عمره ليعيد تشكيلها وفق رغبته. ورغم انفتاح عالم الاحتمالات أمامه، إلا أن الفيلم يوجّه هذه القدرة نحو اختبارات شخصية صغيرة تكشف مقدار تأثير اللحظات اليومية على تشكيل الوعي بالذات وبالعلاقات العاطفية.

FROM THE CREATOR OF
LOVE ACTUALLY
NOTTING HILL
FOUR WEDDINGS AND A FUNERAL
ABOUT TIME
THIS NOVEMBER
WORKING TITLE
R
LANGUAGE AND SOME SEXUAL CONTENT

لا يركز الفيلم على التعقيدات العلمية للسفر عبر الزمن، وإنما يضعها في خدمة فهم الإنسان لعلاقته بأسرته وحبيبته وحياته نفسها، فالعودة إلى الماضي لا تمنح البطل سيطرة مطلقة كما قد يتوقع المشاهد، بقدر ما تكشف تدريجيًا أن بعض التفاصيل الصغيرة التي يظن الإنسان أنه قادر على تغييرها قد تحمل في جوهرها حكمة ما، وأن الزمن حين يُعاد تشكيله بشكل متكرر يفقد جزءًا من بساطته وقدرته على تعليمنا.

ومع تقدم الأحداث يدرك البطل أن أعظم ما يمكن تعلمه هو عيش الحاضر بوعي أكبر، وليس تغيير الماضي. فالزمن في الفيلم مُعلّم يقود الإنسان إلى التفريق بين ما يستحق التغيير وما يستحق القبول، وبين ما يمكن إصلاحه وما يجب التعايش معه. ومن خلال هذا المنظور يقدّم الفيلم رؤية عميقة عن الحب والعائلة، إذ تصبح القدرة على السفر عبر الزمن رمزًا لإمكانية استعادة اللحظات وتقديرها بدلاً من هدرها، فيصير الزمن الاستثنائي بذلك وسيلة لترسيخ معنى الزمن العادي الذي نعيشه جميعًا.

Midnight in Paris: الحنين كرحلة عبر الأزمنة

على خلاف فيلم "About Time" ينطلق فيلم Midnight in Paris (منتصف الليل في باريس) من تصوّرٍ مختلف لعلاقة الإنسان بالزمن، إذ يعالج فكرة الهروب إلى الماضي بوصفه تعبيرًا عن عدم الرضا عن الحاضر.

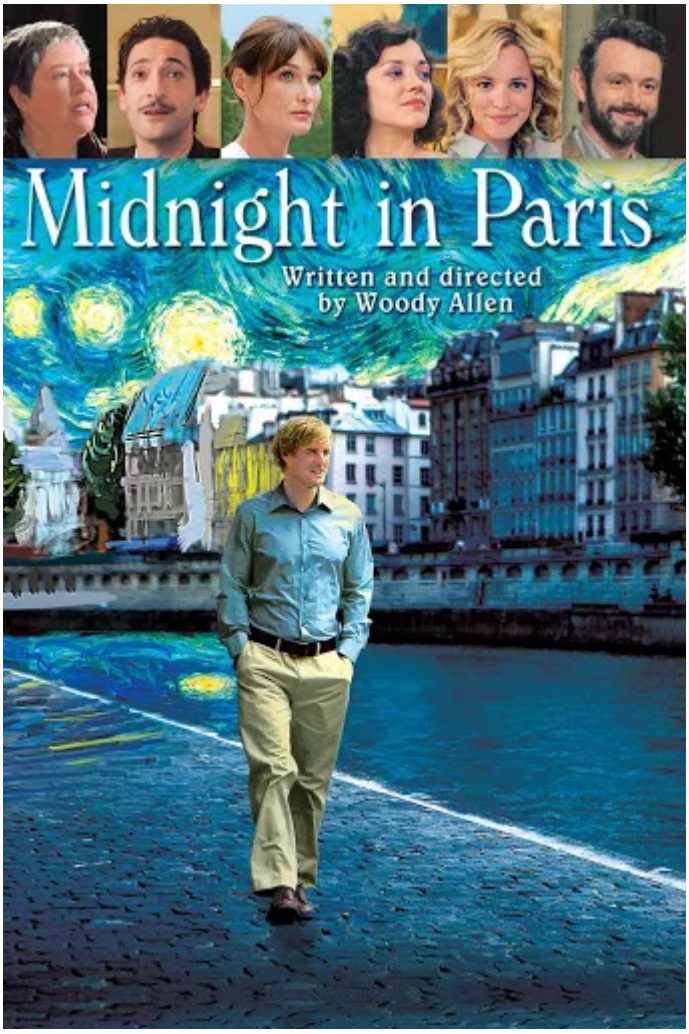

يتابع الفيلم مسار كاتب شاب يعيش صراعًا داخليًا بين طموحه الإبداعي وحياته الواقعية المقيّدة، فينفتح له باب غامض كل ليلة يقوده إلى باريس خلال العشرينيات من القرن الماضي، وهي الفترة التي طالما اعتبرها العصر الذهبي للفنون والأدب. في هذا الفضاء السحري يلتقي شخصيات مثل همنغواي وبيكاسو وفِتزجيرالد، ويعيش حالة من الاندهاش الممزوج بالافتتان، معتقدًا أنه وصل أخيرًا إلى الزمن الذي كان ينبغي أن ينتمي إليه. لكن الفيلم، عبر هذه الرحلة الزمنية، يكشف أن الحنين أحيانا يجعل الإنسان عاجزًا عن إدراك قيمة لحظته الراهنة، فالماضي الذي يبدو ذهبياً ليس سوى انعكاس لرغبتنا في الهروب من تعقيدات الحاضر، والجيل الذي نحسد زمنه كان بدوره يحلم بزمن أسبق يراه أرقى وأجمل.

يستخدم الفيلم فكرة السفر عبر الزمن لفهم وهمِ الكمال الذي نلصقه بالأزمنة الماضية، فيُظهر أن الإنسان حين يلاحق زمناً مثالياً يفقد القدرة على رؤية جمالية الحياة التي يعيشها فعلاً. ومع توغل البطل في رحلته بين الأزمنة يكتشف أن الإبداع الحقيقي يتولد من المصالحة مع الذات وليس من الهروب منها، وأن القدرة على الحب والإنتاج تتطلب قبول الزمن الحاضر بما يحمله من نقص وتحديات.

بهذا يتحول الزمن غير الطبيعي في الفيلم إلى مرآة تعيد تشكيل وعي البطل بذاته، وتساعده على اتخاذ قرارات كانت مؤجلة بفعل التردد والضياع، حيث تمنحه تجربة العودة إلى الماضي القوة للعودة

إلى واقعه بوعي أكبر، ليكتشف أن المكان الذي ينتمي إليه ليس زمناً ماضيا، وإنما لحظته الراهنة حين يُحسن النظر إليها ويحسن عيشها.

Somewhere in Time: العاطفة حين تتجاوز حدود الزمن

في فيلم "Somewhere in Time"(مكان ما في الزمن) تظهر العلاقة بين الزمن والعاطفة بشكل أكثر شاعرية، حيث يتجاوز الحب حدوده الطبيعية، ويدفع البطل إلى اختراق الزمن ذاته للقاء امرأة أسرت قلبه من خلال صورة فوتوغرافية.

يقوم هذا الفيلم على فرضية رومانسية محضة مفادها أن قوة المشاعر قد تكون جسراً يعبر الزمن، وذلك حين يحصل البطل، وهو كاتب مسرحي، على ساعة يدٍ قديمة من امرأة عجوز، ثم حين يقع في حب صورة قديمة لشابة جميلة كانت ممثلة مسرحية، يعود بالزمن إلى أوائل القرن العشرين، ليعثر عليها، فتبدأ رحلته التي سرعان ما تحولت إلى افتتان ثم هوس يجذبه نحو الماضي بقوة لا يستطيع مقاومتها.

يستخدم الفيلم تقنيات بصرية ودرامية تجعل الانتقال الزمني يبدو كما لو أنه ملمح من الأحلام، وليس كحادثة خارقة بالمعنى التقليدي، فيصبح الزمن بذلك مرنًا ينحني تحت وطأة العاطفة. ومع ذلك فإن هذا الانحناء لا يُقدّم بلا ثمن، لأن الحب الذي ينتصر على الزمن يكشف أيضا هشاشة هذا الانتصار، إذ يصبح البطل معلقًا بين زمنين، فاقدًا الانتماء لأي منهما!

كما يطرح الفيلم سؤالاً وجوديًا حول قدرة الإنسان على العيش خارج زمنه الطبيعي، وهل يمكن للعاطفة وحدها أن توفر له أرضًا ثابتة يتحرك عليها؟ وبينما تبدو قصة الحب ممتدة عبر الزمن، فإن الفيلم يلمح إلى أن الأوقات التي نلتقي فيها بمن نحب، الأوقات التي نظن أنها خالدة، يمكن أن تكون هشة وقابلة للضياع بأبسط لحظة شرود.

The Curious Case of Benjamin Button: العمر المعكوس وإعادة تشكيل

هوية الإنسان

وعلى عكس الأعمال المذكورة، والتي تتعامل مع الزمن كمعبر إلى الماضي أو وسيلة لإعادة تشكيل الحاضر، يأتي فيلم The Curious Case of Benjamin Button(الحالة المُحيرة لبنجامين بوتون) ليقدّم علاقة الإنسان مع الزمن بشكل معكوس تمامًا، إذ يولد البطل عجوزًا ثم يتراجع عمره تدريجيًا حتى يغدو طفلاً.

هذا الانقلاب في دورة الحياة الطبيعية يفتح بابًا واسعًا للتأمل في معنى الشيخوخة والشباب، وفي كيف يعيش الإنسان حياته إذا انقلبت معاييره الزمنية.

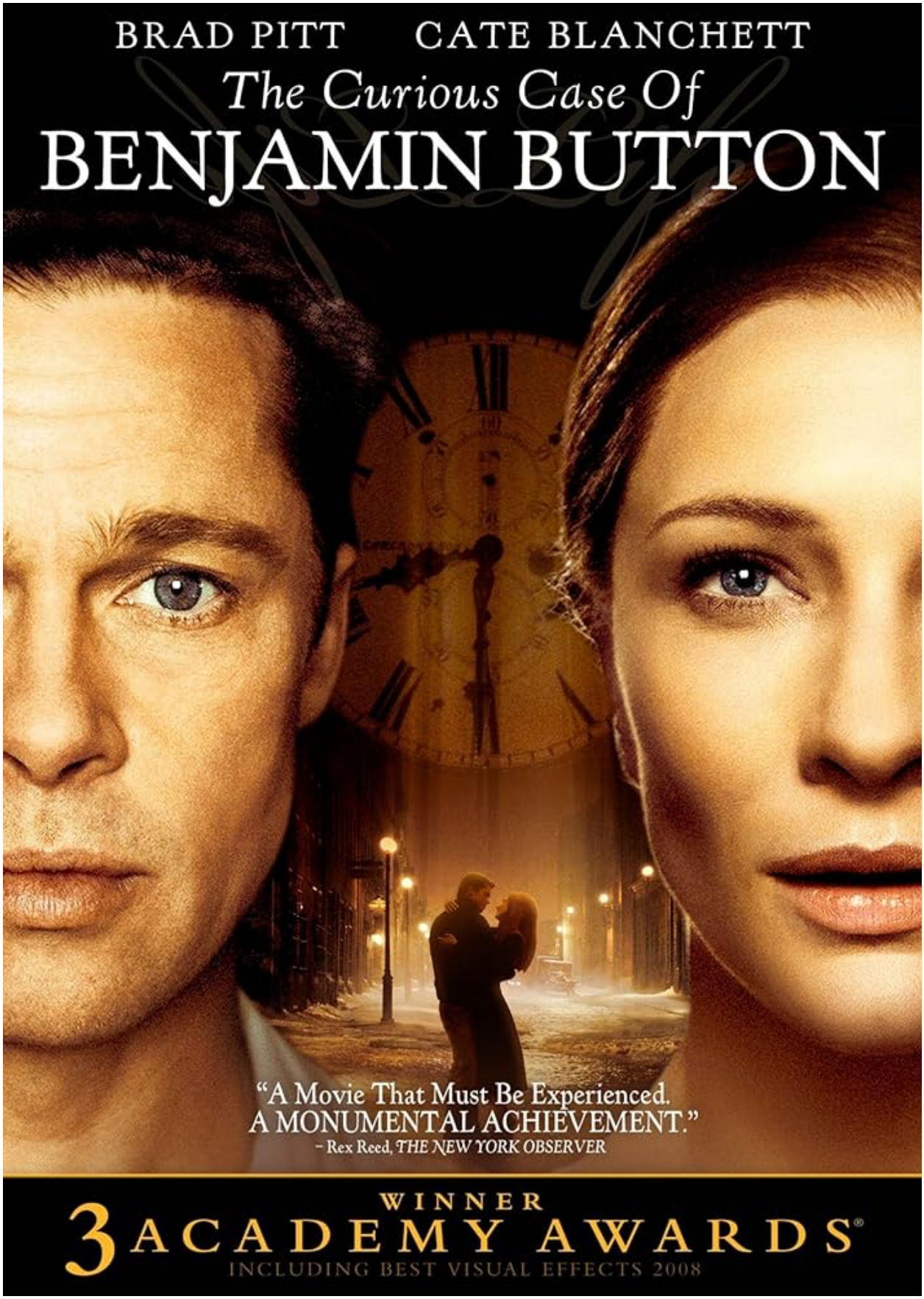

في بنجامين بوتون الطفولة تجربة واعية تُعاش في نهاية العمر، والشباب فترة عبور لا يملك الإنسان فيها سوى أن يراقب ذاته وهي تنفلت نحو الطفولة بدل النضج.

يتناول الفيلم تأثير الزمن المعكوس على العلاقات الإنسانية، خصوصًا العلاقة بينه وبين المرأة التي يحبها، إذ يلتقيان في منتصف الطريق حين يتقاطع عمر كل منهما، لكنهما يفترقان مرة أخرى حين يبدأ أحدهما بالتقدم في العمر والآخر بالتراجع فيه.

يضع هذا الفيلم سؤالاً حساسًا حول إمكانية استمرار الحب حين تصبح التجربة الزمنية غير متناظرة، وكيف يمكن للإنسان أن يستوعب فقدان القدرة على النمو جنبًا إلى جنب مع من يحب.

إن الانفصال في الفيلم تفرضه طبيعة الزمن ذاته، وهي خسارة يتكرر صداها طوال حياة بنجامين، إذ يضطر باستمرار إلى مغادرة من يحبهم كي لا يثقل عليهم بسيرورة حياته المختلفة، وفي الوقت الذي قد يبدو فيه الشباب الدائم حلمًا لدى كثيرين، يعرض الفيلم الوجه الآخر لهذا الحلم، حيث يصبح الإنسان خارج إيقاع الحياة العامة، قادرًا على الملاحظة لكنه عاجز عن الانتماء.

كما أن الزمن المعكوس يكشف هشاشة وجود الإنسان، ويظهر أن معنى الحياة لا يكمن في طولها أو شكلها، بقدر ما يكمن في انسجامها مع من نحب. وفي النهاية يرسم الفيلم صورة بديعة عن الذاكرة بوصفها النقطة التي يلتقي فيها الماضي بالحاضر، والتي تبقى ثابتة حتى حين يتغير كل شيء آخر.

The Age of Adaline: ثقل الزمن حين يتوقف

أما فيلم The Age of Adaline (عصر أدالين) فيقدم معالجة مختلفة لفكرة الزمن غير الطبيعي، إذ لا يتغير الزمن هنا عبر السفر أو الانعكاس أو الحنين، بل يتوقف بالنسبة للبطلة التي تفقد قدرتها على التقدّم في العمر بعد حادث غامض يجمّدها في سن التاسعة والعشرين. هذا التوقف يمنحها شبابًا دائمًا لكنه يسلبها شيئًا أكثر جوهرية: القدرة على الانتماء إلى العالم الذي يتحرك من حولها.

لمواجهة هذه المعضلة تتخذ البطلة هوية جديدة كل عقد من الزمن هربًا من اكتشاف حقيقتها، وتعيش حياتها في سلسلة من البدايات التي لا تُفضي إلى استمرارية، وفي عزلة تنبع من خوفها من أن يكتشفوا سرّها فيبتعدوا عنها، أو أن ترتبط بهم فترى الزمن يغيّرهم بينما تبقى هي ثابتة لا يطالها التحول.

يجعل الخلودُ أدالين شاهدة على رحيل من تحبهم واحدًا تلو الآخر، ويضعها في مواجهة دائمة مع سؤال الهوية ومعنى العيش في عالم لا تستطيع أن تشاركه مصيره الطبيعي، ومع دخول الحب حياتها مجددًا يتصدع هذا الجدار الذي بنته حول ذاتها، فيكشف الفيلم على نحو مؤثر أن رغبة الإنسان في العيش الحقيقي تفوق حاجته إلى البقاء الدائم، وأن الزمن حين يتوقف يفقد الإنسان أحد أهم عناصر التجربة البشرية: الصراع مع الزمن.

هذا الفيلم يمتحن قدرة البطلة على مواجهة خوفها من الزمن بدل الهروب منه، ليكشف أن استعادة العمر الطبيعي قد تكون في جوهرها استعادة للإنسانية ذاتها.

هكذا يقارب العمل مفهوم الخلود من زاوية معاكسة، مبينًا أن الحياة لا تُقاس بطولها أو بثبات ملامحها، بقدر ما تقاس بقدرتها على التغيّر والتفاعل مع من نحب، وأن مرور الزمن، رغم ما يحمله من فقد ووجع، يبقى دليلًا على أننا نعيش فعلًا.

عموما، وعند ملاحظة هذه الأفلام، نجد أن فكرة الزمن غير الطبيعي لا تُستخدم فيها لإبهار المشاهد، لأن مركز السرد هو العلاقات الإنسانية وما يتصل بها من أسئلة، فكل فيلم منها يقدّم الزمن كمرآة لجوهر التجربة البشرية، سواء عبر العودة إلى الماضي لإصلاح الذات، أو الهروب منه بحثًا عن مثالية ضائعة، أو اختراقه بقوة الحب، أو السير فيه بشكل معكوس يكشف هشاشة الإنسان أمام ما لا يستطيع التحكم به... وبهذا تمنح السينما للمشاهد فرصة لرؤية الحياة من زاوية لا يمكن الوصول إليها في التجارب اليومية العادية.

رابط المقال : https://www.noonpost.com/346304/